The Characteristics of Structures in Al-Aswad Bin Yafar,s Poem "Nam Al-Khali": A Descriptive Semantic Study

Moaza Abdulla Al Abdooli
moza.alabdooli09@hotmail.com
Dr. Maryam Saeid Bialeajid
mariam1@sharjah.ac.ae
Department of Arabic Language and Literature - College of Arts, Humanities and Social Sciences - University of Sharjah
Sharjah - United Arab Emirates

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i148.4019

Abstract:

The research examines the grammatical structures in the poem "Nam Al-Khali" by the pre-Islamic poet Al-Aswad Bin Yafar. It is a poem in which he laments himself and anticipates his death after his old age and blindness. The research aims to study the grammatical structures and their relationship with the anxious and melancholy psychology of the poet, and how it affected the composition of meaning. The research began with a preface that defines the structure and its divisions, and the relationship of the structure to semantics, then the poem under analysis. The research contains four sections; the first, the structures of news, the second, the structures of construction, the third, presenting what is due for delay, and the fourth, other structural characteristics. The study adopted the descriptive and analytical approach. The results of the study showed that the poem is characterized by a variety of grammatical structures that have close connotations with the meanings of self-pity and its bleak present. The past tense phrasal verbs dominated the poem, and the nominative sentences came in the adjectival forms identifying places that indicated stability.

Keywords: Pre-Islamic Poetry - Aswad Bin Yafar - Grammar Studies - Semantics

خصائصُ التَراكيبِ في قَصيدةِ "نَامَ الخَليُّ" للشاعر الأسْوَد بِن يُعْفُر (دراسة وصفية دلالية)

الباحثة موزة عبد الله العبدولي
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة الشارقة
الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

د. مريم سعيد بالعجيد
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة الشارقة
الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

(مُلَخَّصُ البَحث)

يتناول البحث التراكيب النحوية في قصيدة "نام الخليُّ" للشاعر الجاهلي الأسود بن يُعفر، وهي قصيدة يرثي فيها نفسه ويرتقب موته بعد كبر سنه وعماه، فيهدف البحث إلى دراسة التراكيب النحوية وإبانة مدى تعالقها مع نفسية الشاعر القلقة والكئيبة، وكيف أثَّرت في تأليف المعنى.

يُستفتح البحث بتمهيد يُعرِّف التركيب وأقسامه، وعلاقة التركيب بالدلالة، تتبعه نبذة عن القصيدة المدروسة، في حين قسَّم البحث إلى أربعة محاور، المحور الأول: تراكيب الإخبار، وفيه تمت دراسة تراكيب الجمل الاسمية والفعلية في القصيدة، والمحور الثاني: تراكيب الإنشاء، وفيه عنيت الدراسة بتراكيب الإنشاء بالقصيدة، يليه المحور الثالث: تقديم ما حقه التأخير: وهو يعنى بمظاهر التقديم والتأخير في القصيدة ودلالاتها، أما المحور الرابع: خصائص تركيبية أخرى: فدُرست فيه دلالات الضمائر ومعاني حروف الجر. في حين اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي لاستخراج التراكيب، والتحليلي لمعاينة التراكيب وتحليلها.

وقد أظهرت نتائج الدراسة أن القصيدة تتميز بتراكيب نحوية متنوعة لها دلالاتها الوثيقة بمعاني رثاء النفس وحاضرها الكئيب، مع استذكار الماضي الرغيد؛ إذ هيمنت الجمل الفعلية الماضوية على القصيدة، وكانت الحالة التركيبية الأكثر وضوحاً، لأنها موصولة بالحسرة في استذكار أيام القوة والقيادة والصحة والشباب. وجاءت الجمل الاسمية في الصفات وذكر الأماكن لتدل على الثبوت والاستقرار، وكثيراً ما يكون خبر الجمل الاسمية جمل فعلية تدل على تغيُّر الحال وزوال النعم.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجاهلي – أسود بن يعفر – دراسات نحوية – الدلالة

المقدمة:

لطالما كانت الجملة في النحو من أهم وحدات المعنى وأبرز المرتكزات التي تتشكَّل من خلالها الدلالة، فالجملة في العالم الشعريّ تمتاز بالتلاحم والدقَّة، ولكل تركيبٍ دوره المهم في توطيد صورة القصيدة ككل، فإنَّ كلَّ اختيارٍ له دلالته، وعلاقته المباشرة مع جوهر القصيدة، لذا فطغيان سمة تركيبية على أخرى لا يحدث عبثاً، بل إنَّ وراء كلُّ ملمح وظاهرة تركيبية معناها العميق والدال.

يتناول هذا البحث التراكيب النحوية في قصيدة "نام الخليُّ" للشاعر الجاهلي الأسود بن يُعفر وأبرز خصائصها ودلالاتها، وهي قصيدة يرثي فيها الشاعر نفسه ويرتقب موته بعد كبر سنه وعماه، فيهدف البحث إلى دراسة التراكيب النحوية وإبانة مدى تعالقها مع نفسية الشاعر القلقة والكئيبة، وكيف أثَّرت هذه التراكيب على تشكيل المعنى الذي أراده الشاعر. ويرجع سبب اختيار الموضوع إلى أهمية هذه القصيدة التي تشكِّل صورة مهمة للشاعر الجاهلي ونظرته نحو الوجود والحياة، وقلق الموت والفناء، بالإضافة إلى شُح الدراسات التي تناولت هذه القصيدة، ولاسيما في دراسة بنُاها التركيبية.

وأسئلة البحث التي حاولت الدراسة الإجابة عنها:

- ما أبرز الخصائص التركيبية في القصيدة؟ وكيف ساهمت في بناء المعنى؟
- كيف أثَّر موضوع القصيدة القائم على رثاء الذات وهاجس القلق على البنى التركيبية؟

أما فيما يخص المنهج فقد اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي لاستخراج التراكيب وأبرز ظواهرها، مع الاستعانة بالأدوات الوصفية والتحليلية لمعاينة التراكيب وتحليلها وفقاً لبعدها الدلالي. وإشارةً إلى أهم الدراسات السابقة التي أفادت الدراسة منها:

١ -سيمياء العواطف: قراءة في قصيدة (نام الخلي) للأسود بن يعفر، لموسى ربابعة، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مج ١٥، ع ١، نيسان، ٢٠١٨م.

وهي دراسة سيميائية تتبع ملامح العاطفة في القصيدة، وهي دعمت دراستنا في فهم الحالة العاطفية للقصيدة.

٢- الموت في الشعر الجاهلي، لعبد السلام حسين أحمد، مطبعة الحسين الإسلامية، ط١، ١٩٩١م.

وهي دراسة أدبية موجزة لمعاني القصيدة وتجليات ظاهرة الموت فيها، واستفادت منها دراستنا في الكشف عن فكرة الموت في التصور الشعري الجاهلي وفي قصيدة المدروسة خاصةً.

بينما تطمح الدراسة أن تكون إضافة على هذه الدراسات في تسليط الضوء على التراكيب النحوية للقصيدة وربطها بالدلالة.

أما في محتويات البحث فقد احتوى التمهيد على تعريف بالتركيب وأقسامه، وعلاقة التركيب بالدلالة، ونبذة موجزة عن القصيدة المدروسة، في حين قسَّم البحث إلى أربعة محاور، المحور الأول: تراكيب الإخبار، وفيه تمت دراسة تراكيب الجمل الاسمية والفعلية في القصيدة، والمحور الثاني: تراكيب الإنشاء، وفيه تمت دراسة تراكيب الإنشاء بالقصيدة، يليه المحور الثالث: تقديم ما حقه التأخير: وهو يعنى بمظاهر التقديم والتأخير في القصيدة ودلالاتها، أما المحور الرابع: خصائص تركيبية أخرى: فدُرست فيه دلالات الضمائر ومعاني حروف الجر، وأخيراً ذيّل البحث بخاتمة ترصد أهم النتائج.

وفي الأخير، نشير إلى أهم الصعوبات البحثية، المُنطلقة من طبيعة النص المدروس، فالقصائد الجاهلية تمتاز ببعض الصعوبة والتعقيد واللبس في الفهم أحياناً، لكن بالاستناد إلى الشروحات والدراسات وأجواء القصيدة بشكلٍ عام حاولنا أن نقارب ونتقصى المقاصد والدلالة، ونرجو أن نكون قد وفّقنا في هذه الدراسة.

التمهيد:

التعريف بالتركيب وأقسامه:

التراكيب في اللغة جمعٌ مفردها: (تركيب)، وجاء في لسان العرب:" ورَكَّبَ الشيءَ: وَضَعَ بَعضَه على بعضٍ، وقد تَرَكَّبَ وتَراكَبَ"(ابن منظور، ١٩٩٣، مادة: ركب)، وتركّب جاءت بمعنى "تألف وتكوّن"(مجمع اللغة العربية، ١٩٩٦، ص:٢٧٥). أي هو الضم والجمع بين الأشياء المفردة البسيطة لتخرج في بنية أكبر مركبة، فالدراسة النحوية تُعنى برصد العلاقات التي ينتظم بها أجزاء الكلام ووصفها ورصد التغيرات التي تطرأ على العلاقات الإسنادية بينها، وحينها يكون التركيب النحوي هو الضابط لسلامة العلاقات اللغوية بالنظم والتأليف بين الكلمات.

وميّز بعض الباحثين بين التركيب والجملة بأن التركيب هو ذلك النمط أو القالب المحدد، في حين أنَّ الجملة هي القول الحقيقي والعدد غير المنتهي من الجمل التي تتطابق مع هذا التركيب، فلكل جملة تركيب محدد، ولكل تركيب عدد غير منتهٍ من الجمل. ومن ذلك ما ذكره محمد الخولي في أنه "يوجد في أية لغة عدد لا نهائي من الجمل التي سبق نطقها أو التي سيقع نطقها في المستقبل، أما عدد القوالب في أية لغة فهو عدد محدود ومعروف، لكل جملة قالب واحد يطابقها، ولكن لكل قالب عدد لا نهائي من الجمل التي تطابقه. فإذا قلنا (نام الولد نوما) فهذه الجملة يقابلها قالب واحد هو (فعل + فاعل + مفعول مطلق) ولكن هذا القالب الأخير تتطابق معه ملايين الجمل في اللغة"(الخوالي، ١٩٩٧، ص: ٦٧ و٦٨).

وقد خضعت الجملة العربية لتقسيمات مختلفة في كتب العلماء، فباعتبار صدر الجملة جعلوها قسمين: اسمية وهي ما كان صدرها اسماً، وفعلية وهي ما كان صدرها فعلاً. وباعتبار موقعها الإعرابي جعلوا الجملة قسمين: جملة لها محل من الإعراب، وجملة لا محل لها من الإعراب. كما قسّموها باعتبار الوظيفة التي تؤديها الجملة وذلك من خلال احتمالية الصدق والكذب فيها إلى :خبرية وهي التي تحتمل الصدق والكذب، وإنشائية لا تحتمل الصدق أو الكذب. وباعتبار القطع والاحتمال تكون الجملة قطعية أو احتمالية، وباعتبار المعنى الظاهر والباطن تكون إما ظاهرة أو باطنة، وباعتبار الخصوص والعموم تكون إما خاصة أو عامة، وباعتبار التمام والنقص تكون إما تامة أو ناقصة.."(السامرائي، ٢٠٠٠، ص:١٢) يقول تمام حسان: "وإن الذي يمكننا أن ننظر إليه من أنواع السياق هو أنواع مباني الجملة العربية. فالجملة العربية تنقسم على قسمين رئيسيين هما الجملة الخبرية، والجملة الإنشائية"(حسان، ١٩٩٨، ص:٢٤٣).

علاقة التركيب بالدلالة:

كما اهتمَّ اللغويون القدامى بالتركيب النحوي الذي أساسه المُسند والمسند إليه، اهتمَ البلاغيون بدراسة النحو من منظور نظرية النظم، التي يُعرِّفها الجرجاني (٤٧١ هـ): "تَوخِّي معاني النحوِ في معاني الكلِم"(الجرجاني، ٢٠٠٢، ص:٣٠٣)، ويبينه أكثر في قوله:" واعلم أن ليس النظْمُ إلا أن تَضعَ كلامَك الوَضْعَ الذي يَقْتضيهِ علمُ النحْو، وتَعْملَ على قوانينه وأُصوله، وتَعْرفَ مناهجَه التي نُهجَتْ، فلا تَزيغَ عنها"(المصدر نفسه، ص:١١٧)، فالكلمات تنتظم وفق ما تمليه القواعد النحوية،فضلا عن تأثرها بالكيفية التي تنتظم بها الكلمات في النفس، وهذا يحيلنا إلى ربط علاقة التركيب النحوي بالدلالة. وهذا أشار إليه ابن خلدون (٨٠٨ هـ):"إذ به تَتَبَيّنُ أصولُ المقاصِد بالدلالة فيُعرفُ الفاعل من المفعولِ والمبتدأُ من الخبر، ولولاه لَجُهِلَ أصلُ الإفادة"(ابن خلدون، ١٩٩٩، ٢/ ٥٤٥)، فالمعاني تتضح من خلال التراكيب ودلالاتها في النصوص.

وقد أكَّد الجرجاني العلاقة المهمة التي تربط بين التراكيب ودلالاتها، فيقول: "أن الألفاظ مغلقة على معانيها، حتى يكون الإعرابُ هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنةٌ فيها، حتى يكونَ هو المستخرجَ لها، وإنه المعيارُ الذي لا يَتبينُ نقصانُ كلام ورجحانه، حتى يُعرَض عليه، والمقياس الذي لا يُعرف صحيحٌ من سقيم حتى يرجع إليه"(الجرجاني، ص:٨٧). وفي ذلك إشارة إلى عملية الترابط المعنوي بين التركيب بوصفه قاعدةً وبين معاني الألفاظ بوصفها دلالةً يعينها موقعها التركيبي في الكشف عن معناها، بينا يؤكد في ذلك إبراهيم أنيس في قوله: "يحتم نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيباً خاصاً لو اختل أصبح من

العسير أن يُفهم المراد منها"(أنيس، ١٩٧٦، ص:٤٨)، فتكمن أهمية التركيب الجوهرية في مساهمته في البيان عن الدلالة.

تقديم لقصيدة (نام الخلي) ومضامينها:

قال الأسود بن يعفر [١]* هذه القصيدة في كبره بعد أن فقد بصره، مخاطباً زوجته ومذكّراً إياها بأيام شبابه المليئة باللهو، وهو يستسلم للموت ويرحب به حتى صارت هذه القصيدة رثاء في الذات، فهو يشتكي فيها من الهمّ والسهاد وحوادث الأيام التي تسدُّ في وجهه رحابة الحياة ونعيمها.

ويبدأ الأسود القصيدة بوصف الأرق الذي سببته الهموم، ثم ينتقل إلى حديثه عن الموت الذي يتربص به، هذا المصير المحتوم بالفناء الذي يجيء إلى جميع الخلق، فيستذكر الأقوام السابقة التي ولَّت، من ملوك وقبائل وشخصيات كان تعيش في نعيم، وما كان لهذا النعيم إلَّا الزوال. وبعد ذلك بدأ باسترجاع ذكريات شبابه في اللهو واللعب وتردده على الخمَّارين واستلطافه للنساء، ولم يغفل رحلاته وأسفاره في الأماكن الموحشة مع فرسه، ووصف أيضاً رحلته مع ناقته، ويختم هذا الاستذكار بالعودة إلى حقيقة أن الفناء طبيعة الأشياء، فالشاعر يرى تحوُّل هذا النعيم الذي قضاه في شبابه من قوة ومال ونِعَم إلى عجزٍ وقلة حيلةٍ وعمى.

وانطلاقاً من تنوع المواضيع في القصيدة فقد آثرنا أن ندرسها من خلال مقاطعها الثلاثة:

أ – المقطع الأول: الشكوى ورثاء الذات (١ – ٧).

ب – المقطع الثاني: فناء الأقوام (٨ – ١٨).

ج – المقطع الثالث: استذكار الشباب والنعيم

(19 – 36).

نص القصيدة (الضبّي، ٢٠١٢، ص: ٢١٦ وما بعدها):

١– نـامَ الخلِـيُّ وما أُحـسّ رُقـادِي والـهَمُّ مُحتَضِرٌ لَـدَيَّ وِسَـادِي

٢– مِنْ غَيْـرِ مـا سَقَمٍ ولكنْ شَفَّنِـي هَمٌّ أَرَاهُ قد أَصـابَ فُـؤَادِي[٢]

٣– ومـنَ الحَـوادِثِ، لا أَبـا لكِ، أَنَّنـي ضُـرِبتْ عليَّ الأرضُ بالأَسْـدَادِ[٣]

٤– لا أَهْتَـدِي فيهـا لِمـوْضِـعِ تَلْعَـةٍ بينَ العِـرَاقِ وبين أَرْضِ مُـرَادِ

---

[١] * هو الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل من بني تميم، وهو شاعرٌ جاهلي أصيب بالعمى في كبره، سُميَ الأسود ذا الآثار لأنَّهُ ما هجا أحداً إلَّا ترك فيه أثراً من هجائه، نادمَ النعمان بن المنذر، وكان كثير الترحال يُعرّج على العرب فيذمهم أو يمدحهم، وهو مجيدٌ غير مُكثر، وقد عدَّه ابن سلام من شعراء الطبقة الثامنة وقال فيه :(له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدَّمناه على مرتبته) وهو يعني قصيدتنا المدروسة، وقد اختار له المفضَّل الضبي قصيدتين في مُفضَّلياته، وتوفي الشاعر عام (٥٨٥م) تقريباً.

[٢] شَفَّني: من الشفوف، نحول الجسم من الهم والوجد.

[٣] الأسداد: جمع سد، وهو الحاجز بين شيئين. يريد أن سُدَّت عليه الأرض من الهم الكِبَر.

٥- ولقد علِمتُ سِوى الذِي نَبَّأْتِني أَنَّ السَّبِيل سبيلُ ذِي الأَعْوَادِ[٤]

٦- إِنَّ المَنِيَّةَ والحُتُوفَ كِلَاهُما يُوفِي المخَارِمَ يَرْقُبانِ سَوَادِي[٥]

٧- لن يَرْضَيَا مِنِّي وَفَاءَ رَهِينَةٍ مِن دُونِ نَفْسِي، طَارِفِي وتلادِي[٦]

٨- ماذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحرِّقٍ تَركُوا منَازِلَهُمْ وبعدَ إِيَادِ[٧]

٩- أَهْلِ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وبارِقٍ والقَصْرِ ذِي الشُّرُفَاتِ من سِنْدَادِ

١٠- أَرضاً تَخَيَّرَها لِدَارِ أَبيهمُ كَعْبُ بنُ مَامَةَ وابنُ أُمِّ دُؤَادِ

١١- جَرَتِ الرِّياحُ على مكانِ دِيارِهِمُ فكأَنَّما كانوا عَلَى مِيعَادِ

١٢- ولَقد غَنُوا فيها بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ في ظِلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأَوتادِ

١٣- نَزَلُوا بِأَنْقُرَةٍ يَسِيلُ عليهمُ ماءُ الفُرَاتِ يَجيءُ مِنْ أَطْوَادِ

١٤- أَينَ الذينَ بَنَوْا فطالَ بِنَاؤُهم وتَمتَّعُوا بالأَهلِ والأَولادِ

١٥- فإِذَا النَّعيمُ وكلُّ ما يُلْهَى به يوماً يَصيرُ إلى بِلىً ونَفَادِ

١٦- في آلِ غَرْفٍ لو بَغَيْتِ لِيَ الأَسَى لَوَجَدْتِ فِيهم أُسْوَةَ العُدَّادِ

١٧- ما بَعْدَ زَيْدٍ في فَتَاةٍ فُرِّقُوا قتْلاً ونَفْياً بعدَ حُسْنِ تآدِي

١٨- فَتَخَيَّرُوا الأَرضَ الفَضَاءَ لِعِزِّهِمْ ويَزِيدُ رَافِدُهُمْ على الرُّفَّادِ[٨]

١٩-إِمَّا تَرَيْنِي قَدْ بَلِيتُ وغَاضَنِي ما نِيلَ مِن بَصَرِي ومن أَجْلَادِي[٩]

٢٠- وَعَصَيْتُ أَصحابَ الصَّبابَةِ والصِّبَا وأَطَعْتُ عَاذِلَتِي ولَانَ قِيَادِي

٢١- فلقد أَرُوحُ على التِّجارِ مُرَجَّلاً مَذِلاً بمَالي لَيِّناً أَجْيَادِي[١٠]

٢٢- ولقدْ لَهَوْتُ ولِلشَّبابِ لَذَاذَةٌ بِسُلَافَةٍ مُزِجَتْ بماءِ غَوادِي[١١]

٢٣- مِنْ خَمْرِ ذِي نَطَفٍ أَغَنَّ مُنَطَّقٍ وَافَى بها لِدَرَاهِمِ الأَسْجَادِ[١٢]

---

[٤] ذي الأعواد: جد أكثم بن صيفي، كان مُعمِّراً، وكان أعز من أهل زمانه، فاتخذت لهُ قُبّة على السرير، فلم يأته خائف إلا أمن، ولا ذليل إلا عز، ولا جائع إلا شبع، فيقول لو أغفل الموتُ أحداً لأغفل ذا الأعواد.

[٥] يوفي: يعلو، المخارم: جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل، سوادي: شخصي، يريد أنَّ المنية والحتوف يرقبانه.

[٦] الطارف: ما استفاده الرجل وما استحدثه من مال، والتالد: ما ورثه من آبائه، أي أراد القول إن المنية لا تقبل منه فديةً فداءً لنفسه.

[٧] من بيت رقم ٨ إلى ١٨ يذكر أسماء ممالك وقبائل فنوا وبلوا بعد نعيمهم، فيذكر منهم آل محرق، وقوم إياد، وأهل الخورنق، وكعب بن مامة، وابن أم داؤد، وآل غرف، وقوم زيد وأنَّ مصيرهم كان الفناء.

[٨] تخيّروا: أي تخيّروا قبل أن يُصابوا، الرفد: العطية.

[٩] غاضني: نقصني، أجلاده: خلقه وشخصه.

[١٠] التجار: بيوت الخمارين، مرجّلاً: أي مرجل الشعر والترجيل تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه، المذل: أي يقلق يماله حتى ينفقه.

[١١] السلافة: خالص الشراب وأوله، الغوادي: السحاب ينشأ غدوةً.

[١٢] هذا البيت أوصاف لبائع الخمر، وهو غلام من العجم، يرتدي الأقراط، وفي صوته غُنَّة، وفي وسطه نِطاق، ويبيع الخمرة بدراهم الأسجاد، أي الأكاسرة. وكما قال الأصمعي (دراهم الأسجاد كانت عليها صور يكفرون لها ويسجدون).

٢٤- يَسْعَى بها ذُو تُومتَيْنِ مُشَمِّرٌ قَنَأَتْ أَنَامِلُهُ منَ الفِرْصَادِ[١٣]

٢٥- والبِيضُ تَمْشِي كالبُدُورِ وكالدُّمَى ونَوَاعِمٌ يَمْشِينَ بِالأَرْفَادِ[١٤]

٢٦- والبيضُ يَرْمِينَ القُلُوبَ كأَنَّها أُدْحِيُّ بَيْنِ صَرِيمةٍ وجَمَادِ[١٥]

٢٧- يَنْطِقْنَ مَعرُوفاً وهُنَّ نَوَاعِمٌ بِيضُ الوُجُوهِ رَقِيقَةُ الأَكْبَادِ

٢٨- يَنْطِقْنَ مَخْفُوضَ الحَدِيثِ تَهَامُساً فَبَلَغْنَ ما حاوَلْنَ غَيْرَ تَنَادِي

٢٩- ولقدْ غَدَوْتُ لِعَازِبٍ مُتَنَاذَرٍ أَحْوَى المذَانِبِ مُؤْنِق الرُّوَّادِ[١٦]

٣٠- جَادَتْ سَوَارِيهِ وآزَرَ نَبْتَهُ نُفَأٌ من الصَّفْرَاءِ والزُّبَّادِ[١٧]

٣١- بِالْجوِّ فالأَمَرَاتِ حَوْلَ مُغَامرٍ فَبِضَارِجٍ فَقَصِيمَةِ الطُّرَّادِ[١٨]

٣٢- بِمُشَمِّرٍ عتِدٍ جَهِيزٍ شَدُّهُ قَيْدِ الأَوَابِدِ والرِّهَانِ جَوَادِ[١٩]

٣٣- يَشْوِي لَنَا الوَحَدَ المُدِلَّ بِحُضرِهِ بِشَرِيجِ بَيْنَ الشَّدِّ والإِرَادِ[٢٠]

٣٤- ولقَدْ تَلَوْتُ الظَّاعِنينَ بِجَسْرَةٍ أُجْدٍ مُهَاجِرةِ السِّقَاب جَمَادِ[٢١]

٣٥- عَيْرَانةٍ سَدَّ الرَّبِيعُ خَصَاصَهَا مَا يَسْتَبِينُ بهَا مَقِيلُ قُرَادِ[٢٢]

٣٦- فَإِذَا وذَلِكَ لا مهَاهَ لِذِكْرِهِ والدَّهرُ يُعْقِبُ صَالِحاً بِفَسَادِ[٢٣]

أولاً: تراكيب الأخبار:

تحوي القصيدة بطبيعة الحال على جملٍ اسمية وجملٍ فعلية، ولكلّ قسمٍ مميزاته وخصائصه التعبيرية الخاصة، لأنَّ " الجملة الاسمية تدل على الثبوت والجملة الفعلية تدل على الحدوث" (السامرائي،٢٠٠٧، ص: ١٦١)، فإذا " أردت الدلالة على الحدوث جئتَ بجملة مسندها فعل تقدَّمَ الفعل أو تأخر. وإذا أردتَ الدلالة على الثبوت جئتَ بجملة مسندها

[١٣] التومتان: اللؤلؤتان، قنأت: احمرَّت، الفرصاد: التوت. شبه حمرة لون الشراب بحمرة الفرصاد.
[١٤] الدمى: الصورة المنقَّشة من الرخام، الأرفاد: الرفد وهو القدح الضخم.
[١٥] الأدحيُّ: الموضع تدحوه النعامة برجلها لتبيض عليه، أراد: كأنَّها بيض أدحي، الصريمة: القطعة من الرمل، الجماد: ما غلظ من الأرض.
[١٦] العازب: البعيد.. أراد مكاناً، المتناثر: الذي ينتظره الناس لخوفه، المذنب: المسيل الصغير من الحرة إلى الوادي، الأحوى: الذي اشتدَّت خضرته حتى ضرب إلى السواد، المؤنق: المعجب، الرواد: الرائد الذي يدور في البلاد يطلب الرعي.
[١٧] السواري: جمع سارية وهي السحابة تمطر ليلاً، آزر: عاون، النبأ: قطع من النبات المتفرّق، الصفراء والزباد: ضربان من العشب.
[١٨] جميعها أسماء مواضع فيها الكلأ.
[١٩] المشمر: الفرس الطويل القوائم، العتد: الذي عنده عدة للجري، جهيز شده: سريع عدوه، الأوابد: الوحش، الجواد: الكثير العدو.
[٢٠] الوحد: الحمار الذي ليس مثله شيء من حسنه، وأراد القول في هذا البيت أن هذا الفرس من شدة عدوه يلحق الوحش عدواً، فكأنَّما لما صاده هو شواه، بحضره: بعدوه.
[٢١] تلوت: تبعت، جسرة: الناقة الشديدة التي تجسر على السير.
[٢٢] عيرانة: التي تشبه العير في صلابتها، الخصاص: الفرج بين الأشياء، أي أسمنها الربيع بعد هزالها فامتلأت سمناً. أراد أنَّها قد سمنت وأملست فلا يثبت عليها قراد.
[٢٣] لا مهاه: لا بقاء.

اسم"(السامرائي، ٢٠٠٠، ١٦/١)، فلكل استعمال دلالته الخاصة، وكما قال الجرجاني: "الفعل يقتضي مزاولةَ وتجدُّدَ الصفةِ في الوقت، ويَقْتضي الاسمُ ثُبوتَ الصفةِ وحُصولها، من غير أن يكون هناك مُزاولةٌ وتَزْجيةُ فعلٍ ومعنىً يَحْدُث شيئاً فشيئاً"(الجرجاني، ص:١٨٢)، إذاً فحين تكون الجملة الاسمية هي مركز الركود والثبوت، فالجملة الفعلية هي مركز الديمومة والحركة.

وبالنظر إلى تراكيب القصيدة، وتنوعها بين الجمل الاسمية والفعلية، يلفت النظر ظاهرة بروز الجمل الفعلية وطغيانها على الاسمية، وقد يرجع السبب إلى طبيعة الموضوع الذي يتناوله الشاعر، وهو حديثه المطوَّل عن الماضي وما قام به من أعماله، بالإضافة إلى جوهر القصيدة الذي يدور حول التحوُّل والتغيُّر الذي يطال الأشياء والأجساد، والحياة دائمة التجدد والحركة، هذه الحركة الدائبة التي مصيرها الفناء.

وسننظر بالتفصيل إلى ظهور الجمل الاسمية والفعلية في القصائد وفقاً لترتيب المقاطع، وذلك لارتباط الموضوعات في كلِّ مقطع بدلالته الخاصة:

المقطع الأول: الشكوى ورثاء الذات (١ – ٧) (الضبّي، ص:٢١٦):

١– نامَ الخلِيُّ وما أُحسّ رُقادِي والهَمُّ مُحتَضِرٌ لَدَيَّ وِسَادِي

٢– مِنْ غَيْرِ ما سَقَمٍ ولكنْ شَفَّنِي هَمٌّ أَرَاهُ قد أَصابَ فُؤَادِي

٣– ومِنَ الحَوادِثِ، لا أَبا لكِ، أَنَّني ضُرِبتْ عليَّ الأرضُ بالأَسْدَادِ

٤– لا أَهْتَدِي فيها لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ بينَ العِرَاقِ وبينَ أَرْضِ مُرَادِ

يفتتح الشاعر قصيدته بالجملة الفعلية الماضوية (نامَ الخلِيُّ)، يفتتح بفعل الماضي وكأنَّ هذا الآخر قد نام منذ فترةٍ طويلة، وتليها الجمل الفعلية المضارعية (وما أحسُّ رقادي) هذا الأرق الذي يقضي مضجعه ويعكر صفو لياليه، واستعمل الشاعر ما النافية وهي "إذا دخلت على الفعل المضارع خلَّصتهُ للحال"(السامرائي، ٤/ ١٩١)، أي أنَّها تنفي الحال بدخولها إلى المضارع، والشاعر ينفي حالة النوم ورغبته فيه. ويرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى: (الهَمُّ مُحتَضِرٌ لَدَيَّ وِسَادِي) وهي جملة اسمية تدل على الثبوت، هذا الهم حاضرٌ ومؤرقٌ قلبَ الشاعر. الهم الذي يتضاعف بالحوادث التي تسدُّ عليه مخارجه (ومنَ الحَوادِثِ، لا أَبا لكِ، أَنَّني ... ضُرِبتْ عليَّ الأرضُ بالأَسْدَادِ) هذا الانسداد قد يكون إشارةً إلى عماه بعد أنَّ كان مبصراً، وهي جملة اسمية خبرها جملة فعلية، فالجملة الفعلية (ضُربَت عليَّ الأرض) تدلُّ على تغيُّر الظروف وتبدل الحال. ويؤكد هذه الفكرة بقوله في الجملة الفعلية (لا أَهْتَدِي فيها لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ) هذه الجملة التي يبدأها بحرف النفي لا التي إذا دخلت على الفعل المضارع فإنَّها تُخلِّصه للاستقبال (يُنظر: السامرائي، ٤ / ٢٠٦). لا يهتدي إلى تعلةٍ وهي

ما ارتفع من الأرض وما انخفض، أي لا يهتدي إلى مكان، فهو يعيش حالة من التيه والتخبُّط بعد أن تكالبت عليه الهموم. ثمَّ يكمل شكواه ويبدأ برثاء ذاته (الضبّي، ص:٢١٦):

٥- ولقد علِمتُ سِوى الذِي نَبَّأْتِني أَنَّ السَّبِيل سبيلُ ذِي الأَعْوَادِ

٦- إِنَّ المَنِيَّةَ والحُتُوفَ كِلَاهُما يُوفِي المخَارِمَ يَرْقُبانِ سَوَادِي

٧- لن يَرْضَيَا مِنِّي وَفَاءَ رَهِينَةٍ مِن دُونِ نَفْسِي، طَارِفي وتلادِي

يخاطب زوجته في هذه الأبيات ويُذكرها بحقيقة المآل فالسُبل تفضي إلى الفناء، كما فنى ذي الأعواد وهو من المُعمّرين(عبد السلام، ١٩٩١، ص:٨٥) (ولقد علِمتُ سِوى الذِي نَبَّأْتِني) هذه الجملة الفعلية التي تدخل فيها الجملة الاعتراضية (سوى الذي) الدَّالَّة على حصول نقاش وحوار بينهما، ويبدأ بعدها بالتعبير عن هواجسه بصوتٍ مسموع، وبخوفٍ يكاد أن يتلمسه القارئ.

فيقول في الجملة الاسمية التي خبرها جملة فعلية (إِنَّ المَنِيَّةَ والحُتُوفَ كِلَاهُما.. يُوفِي المخَارِمَ يَرْقُبانِ سَوَادِي) أي أنَّ المنيَّة والموت يرقبانه من أعلى الجبل ويترصدانه، على الرغم من عماه فهو يرى حتفه ويشعر بدنوه، وهو قد أكَّد الجملة بابتدائه بإنَّ التوكيد التي إذا دخلت على الاسم تؤكده (يُنظر: السامرائي، ٤/ ١٥٥). فهو يؤكِّد خوفه بقرب الأجل. ويستطرد في الوصف قائلاً -عن المنية والحتوف- (لن يَرْضَيَا مِنِّي وَفَاءَ رَهِينَةٍ ... مِن دُونِ نَفْسِي، طَارِفي وتلادِي) في هذه الجملة الفعلية التي تدل على الاحتدام والتوتر يشير إلى أنَّ المنية والحتوف لن يرضيا منه فديةً يفدي بها نفسه، فلا الطارف (ما استُحدث من مال) ولا التالد (الذي ورثه عن آبائه) سيرد عنهما عن إنهاء أجله. ولا ننسى استعماله ب(لن) النافية والتي "تدخل على الفعل المضارع فتنفيه نفياً مؤكَّداً وتخلصه للاستقبال" (المرجع نفسه، ١٩٠/٤)، وبما أنَّها تنفي المستقبل نفياً تاماً فهذا يدل على استحالة قبولهما للفدية وأنَّ الموت لا محالة حاصل.

نستخلص من المقطع الأول أنَّ الجمل الاسمية تجيء لتدل على ثبوت الأشياء والمعاني كما هو حال الهم، وأما الجمل الفعلية تجيء لتدل على الحركة الزمنية والتغيُّر.

المقطع الثاني: فناء الأقوام (٨ - ١٨) (الضبّي، ص:٢١٧):

٨- مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ تَركُوا منَازِلَهُمْ وبعدَ إِيَادِ

٩- أَهْلِ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وبارِقٍ والقَصْرِ ذِي الشُّرُفَاتِ من سِنْدَادِ

١٠- أَرضاً تَخَيَّرَهَا لِدَارِ أَبيهمُ كَعْبُ بنُ مَامَةَ وابنُ أُمِّ دُؤَادِ

١١- جَرَتِ الرِّياحُ على مكانِ دِيارِهِمُ فكأَنَّما كانوا عَلَى مِيعَادِ

١٢- ولَقد غَنُوا فيها بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ في ظِلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأَوتادِ

١٣- نَزَلُوا بِأَنْقُرَةٍ يَسِيلُ عليهمُ ماءُ الفُرَاتِ يَجيءُ مِنْ أَطْوَادِ

يبتدئ المقطع بالجملة الاسمية (ماذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحرِّقٍ)، هذا التساؤل المليء بالخيبة، فلا أمل بعد تغيُّر الأحوال (تَركُوا منَازِلَهُمْ وبعدَ إِيَادِ) هذه الجملة الفعلية الماضوية في أول بيت المقطع تؤكد تبدُّل الأحوال، فآل مُحرِّقٍ من ملوك العرب وكذلك قبيلة إياد الذين هجروا قصورهم والنعيم الذي كانوا فيه، في حين أنَّ "الخورنق والسدير يمثلان القصور رمز الحضارة والحياة، وبارق وسنداد يمثِّلان الماء دلالة الحياة والخصب ودعة العيش"(ربابعة، ٢٠١٨، ص:٣٣٥)، ويُلحظ تتابع الجمل الفعلية في هذا الاستعراض لسيرة هؤلاء الأقوام: (أَرضاً تَخَيَّرَها لِدَارِ أَبيهمُ ...كَعْبُ بنُ مَامَةَ)، (جَرَتِ الرِّياحُ على مكانِ دِيارِهِمُ)، (ولَقد غَنُوا فيها بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ)، (نَزَلُوا بِأَنْقُرَةٍ يَسِيلُ عليهمُ ... ماءُ الفُرَاتِ) هذه الجمل الفعلية الماضوية التي فيها حركة ملحوظة وديمومة (تركوا، تخيَّرها، جرتِ، غَنُوا، نزلوا)، فكلُّ هذا النعيم (بأنعمِ عيشةٍ) ليس نعيماً عادياً بل إنَّ استخدامه لصيغة التفضيل تزيد من معنى المبالغة والأسف على المصير الذي آلت إليه هذه النعم، وهؤلاء الأقوام انتهى إرثهم وفني جسدهم. وهو يتبع هذا الأسلوب الوعظيّ في ذكر قصص الأولين تذكرةً بالموت واستسلاماً له، فيُكمل سرده في هذا المقطع (الضبّي، ص:٢١٧ و ٢١٨):

١٤- أَيــنَ الــذينَ بَنــوْا فطــالَ بِنَاؤُهــم وتَمتَّعُــوا بـالأَهــلِ والأَولادِ
١٥- فــإِذَا النَّعيــمُ وكــلُّ مــا يُلْهَــى بــه يومــاً يَصيــرُ إِلــى بِلــىً ونَفَــادِ
١٦- فــي آلِ غَــرْفٍ لــو بَغَيْــتِ لِــيَ الأَسَــى لَوَجَــدْتِ فِيــهم أُسْــوَةَ العُــدَّادِ
١٧- مــا بَعْــدَ زَيْــدٍ فــي فَتَــاةٍ فُرِّقُــوا قتْــلاً ونَفْيــاً بعــدَ حُسْــنِ تــآدِي
١٨- فَتَخَيَّــرُوا الأَرضَ الفَضَــاءَ لِعِزِّهِــمْ ويَزِيــدُ رَافِدُهُــمْ علــى الرُّفَّــادِ

يتساءل عن الأقوام الراحلة الذين كانت عيشتهم هنيَّة بين الأهل والأولاد، مستشهداً بصورة التحوُّل: (فإِذَا النَّعيمُ وكلُّ ما يُلْهَى به) تتقدم الجملة الاسمية التي تدل على الإخبار والتقرير والمتبوعة بالفاء وإذا الفجائية، في حين أنَّه يُلبس النعيم صفة الكثرة، لأنَّ لفظ (كلُّ) من ألفاظ التوكيد التي تدل على العموم وهو "يفيد الاستغراق والإحاطة بالأجزاء والأفراد"(السامرائي ، ٤ /١٣٨)، هذا النعيم الواسع ينقلب حاله بدخول الجملة الاسمية المنسوخة بالفعل الناسخ (يصير) تحقق المفاجأة (يوماً يَصيرُ إلى بِلىً ونَفَادِ) نعيمٌ بالي ونافد، ويشير بعدها إلى قصص أخرى لأقوام كآل غرف "وهو لقب مالك الأصغر بن حنظلة، فضلا عن الإشارة إلى بني زيد بن مالك بن حنظلة الذين تشرَّدوا وغُرِّبوا ونفوا في البلاد. بعدما كانوا يتمتعون بالقوة والجبروت، وكان لهم فضاء رَحب يستوعب عزّهم وعطاياهم" (ربابعة، ص:٣٣٧)، فيستعمل الجملة الشرطية في خطابه مع زوجته، (في آلِ غَرْفٍ لو بَغَيْتِ لِيَ الأَسَى) والأسى هي الأمثال، و(لو) أداة شرطية "قد تأتي للتمني"(السامرائي ، ٤ /٩٠)، وكأنَّ حزنه يتوسَّع وقلقه يزيد من كثرة الشواهد التي يستشهد

بها، فيجيء جواب الشرط (لَوَجَدْتِ فِيهم أُسْوَةَ العُدَّادِ) حالهم كحال غيرهم إلى فناء.

فنستخلص أهم ما يميز هذا المقطع، وهو اتسامه بوفرة الجمل الفعلية الماضوية والتي تغلب عليها ضمائر الجمع دلالةً على الأقوام الفانية، وكثيراً ما تلي الجمل الاسمية جملٌ فعلية لدلالة على تغيُّر الحال وزوال النعم. فالشاعر كان يحاول تأكيد تصوره نحو المصير المحتوم والموت الذي يتربَّص به، ويستسلم في الآن نفسه لسيرورة الأقدار.

المقطع الثالث: استذكار الشباب والنعيم (١٩ – ٣٦) (الضبّي، ص ٢١٨ و ٢١٩):

١٩–إِمَّا تَرَيْنِي قَدْ بَلِيتُ وغَاضَنِي ... ما نِيلَ مِن بَصَرِي ومن أَجْلَادِي

٢٠– وَعَصَيْتُ أَصحابَ الصَّبابَةِ والصِّبَا ... وأَطَعْتُ عَاذِلَتِي ولَانَ قِيَادِي

٢١– فلقد أَرُوحُ على التِّجارِ مُرَجَّلاً ... مَذِلاً بمَالِي لَيِّناً أَجْيَادِي

٢٢– ولقَدْ لَهَوْتُ ولِلشَّبابِ لَذَاذَةٌ ... بِسُلَافَةٍ مُزِجَتْ بماءِ غَوادِي

٢٣– مِنْ خَمْرِ ذِي نَطَفٍ أَغَنَّ مُنَطَّقٍ ... وَافَى بها لِدَرَاهِمِ الأَسْجَادِ

٢٤– يَسْعَى بها ذُو تُومتَيْنِ مُشَمِّرٌ ... قَنَأَتْ أَنَامِلُهُ مِنَ الفِرْصَادِ

٢٥– والبِيضُ تَمْشِي كالبُدُورِ وكالدُّمَى ... ونَوَاعِمٌ يَمْشِينَ بِالأَرْفَادِ

٢٦– والبيضُ يَرْمِينَ القُلُوبَ كأَنَّها ... أُدْحِيُّ بَيْنِ صَرِيمةٍ وجَمَادِ

٢٧– يَنْطِقْنَ مَعرُوفاً وهُنَّ نَوَاعِمٌ ... بِيضُ الوُجُوهِ رَقِيقَةُ الأَكْبَادِ

٢٨– يَنْطِقْنَ مَخْفُوضَ الحَدِيثِ تَهَامُساً ... فَبَلَغْنَ ما حاوَلْنَ غَيْرَ تَنَادِي

يبدأ هذا المقطع بالجملة الفعلية: (إِمَّا تَرَيْنِي قَدْ بَلِيتُ وغَاضَنِي...ما نِيلَ مِن بَصَرِي ومن أَجْلَادِي) و(إمَّا) هي أداة شرط تلحق الفاء بجوابها (فلقد أَرُوحُ)، وفي معناها يقول النحَّاس عن الزجاج: "سمعتُ أبا إسحاق يسأل عن معنى (أمَّا) فقال: هي للخروج من شيء إلى شيء، أي دع ما كُنا فيه وخذ في شيء آخر"(نقلاً عن: أبو الفتوح، ١٩٩٣، ص:٩٩). وهذا ما يقوله الشاعر فهو يحاول إقناع زوجته بالعدول عن رأيها فيه فكأنه يقول: إن رأيتني قد هرمتُ وتغير حالي وأصابني العمى وهجرت أصحابي وصرتُ منقاداً لا قائداً فمازلت ارتياد بيوت الخمارين مُلقياً الأشعار ومستأنساً بما تبقى من شبابي ومالي.

لذا فهو يحاول الخروج من صورة العجز إلى صورة الحيوية، وانطلاقاً من وصفه لحاضره، يبدأ بسرد مغامرات شبابه المليئة باللهو والنِعَم، مستعملاً الجملة الفعلية (ولقدْ لَهَوْتُ ولِلشَّبابِ لَذَاذَةٌ .... بِسُلَافَةٍ مُزِجَتْ بماءِ غَوادِي) هذا الاستعراض المُفاخر بذات الماضي، بينما تعترض جملة (ولِلشَّبابِ لَذَاذَةٌ) هذا السياق، واللافت في الأمر أنَّ الجملة الاعتراضية لها دلالتها المهمة، فقد ذكر ابن فارس: "ومن سنن العرب أن يعترض بين الكلام وتمامه كلام آخر، ولا يكون هذا المعترض إلا مفيداً" (ابن فارس، د.ت، ص: ٤١٤) وهي أيضاً "ذات علاقة معنوية بالكلام الذي اعترضت بين جزئيه" (قباوة، ١٩٨٩، ص:٦٧)، فنستطيع

اعتبار أنَّ الاعتراض هدفه توكيديّ، فهو يريد أن يُسهب أكثر حول متعة الشباب والصحة التي نُعمَ بها، والملاحظ أن الجملة الاعتراضية وقفت بين اللهو والسُلافة –وهي خالص الشراب وأوله– إذ أنَّ "التجليّ الأول للذَّة يتجلى في (الخمرة) الذي يُشكل مبدأً أساسياً من مبادئ المُتعة الجاهلية" (ربابعة، ص:٣٣٩)، ويبدأ بعدها بوصف الخمر والساقي وصفاً دقيقاً، وهذا لا يدل فقط على تشوّقه لهذه الأيام بل أيضاً إلى شوقه إلى نعمة البصر الذي حُرم منها في كبره. يقول في وصف الساقي (يَسْعَى بها ذُو تُومَتَيْنِ مُشَمِّرٌ... قَنَأَتْ أَنَامِلُهُ منَ الفِرْصَادِ) نلحظ هيمنة الجمل الفعلية، هذه الحركة الدائبة تعزز من فكرة الشاعر في إبانة حيوية الأيام الخوالي مقابل أيامه المنقلبة إلى وهن وركود وحسرة، فيستعرض في هذا البيت صورة الساقي الذي يرتدي أقراط اللؤلؤ وهو مشمرٌّ عن يديه، وقد (قَنَأَتْ أَنَامِلُهُ) أي احمرت كحُمرة التوت وهي جملة فعلية أخرى تؤكد تغيُّر الألوان والأحوال.

وتدخل النسوة في صورة (الشباب واللذة) فيصفهن بأدق الأوصاف (والبِيضُ تَمْشِي كالبُدُورِ وكالدُّمَى ...ونَوَاعِمٌ يَمْشِينَ بِالأَزْفَادِ) يشبه النسوة ببيض النعام، وحسنهن كالبدور وكالدُّمى، ويُلحظ أنَّها جملة اسمية خبرها فعلي، بل وأن الجمل الفعلية تتوالى في وصفهن (يَنْطِقْنَ مَعرُوفاً) (يَنْطِقْنَ مَخْفُوضَ الحَدِيثِ) (فَبَلَغْنَ ما حاوَلْنَ) لنجد أنَّ هناك بُعداً حركيَّاً وحياة قائمة في هذا المَشهد (الضبّي، ص: ٢١٩ و٢٢٠):

٢٩- ولقَدْ غَدَوْتُ لِعَازِبٍ مُتَنَاذَرٍ أَحْوَى المذَانِبِ مُؤْنِق الرُّوَّادِ

٣٠- جَادَتْ سَوَارِيهِ وآزَرَ نَبْتَهُ نُفَأٌ من الصَّفْرَاءِ والزُّبَّادِ

٣١- بِالْجَوِّ فالأَمْرَاتِ حَوْلَ مُغَامِرٍ فَبِضَارِجٍ فَقَصِيمَةِ الطُّرَّادِ

٣٢- بِمُشَمِّرٍ عتِدٍ جَهِيزٍ شَدُّهُ قَيْدُ الأَوَابِدِ والرِّهَانِ جَوَادِ

٣٣- يَشْوِي لَنَا الوَحَدَ المُدِلَّ بِحُضرِهِ بِشَرِيجِ بَيْنَ الشَّدِّ والإِيرَادِ

٣٤- ولقَدْ تَلَوْتُ الظَّاعِنينَ بِجَسْرَةٍ أُجُدٍ مُهَاجِرَةِ السِّقَاب جَمَادِ

٣٥- عَيْرَانَةٍ سَدَّ الرَّبِيعُ خَصَاصَهَا مَا يَسْتَبِينُ بِهَا مَقِيلُ قُرَادِ

٣٦- فَإِذَا وذَلِكَ لا مهَاةَ لِذِكْرِهِ والدَّهرُ يُعْقِبُ صَالِحاً بِفَسَادِ

يكمل الشاعر استعراض ماضيه وشبابه الرغيد، مسلِّطاً الضوء على شجاعته وإقدامه، يقول (ولقدْ غَدَوْتُ لِعَازِبٍ مُتَنَاذَرٍ) هذه الجملة الفعلية التي تطوي دلالات الحركة، فالشاعر ينزل إلى هذه المراعي الخصبة وغير المأهولة بكل جسارة، هذا المرعى الذي تجود فيه الغيوم بأمطارها (جَادَتْ سَوَارِيهِ) فتورق الأرض بنباتها (وآزَرَ نَبْتَهُ) وهي جمل فعلية مليئة بالحياة، والملاحظ أنَّ إحساس التفاؤل "يتنامى عبر اختيار المفردات (جادت، وسورايه، وآزر، ونبته، ونفأ، والصفراء، والزبَّاد) فهذه الدوال تجتمع وتتكثَّف لتصنع عالم الأمل الذي تحلم به الذات وتسعى إلى امتلاكه (...) فهذه الهواجس جعلت الذات تتمنى أن تعيد امتلاك

الواقع"(بتصرف: ربابعة، ص: ٣٤١)، وهذه الأسفار الصعبة والمتنوعة (الْجوِّ، الأَمَرَاتِ، مُغَامِرٍ، ضَارِجٍ، قَصِيمَةٍ) جمل اسمية يشير فيها إلى أسماء مواضع تمتاز بالكلأ، وهذه الرحلات لن تكتمل إلا بفرسٍ أصيلٍ ذي مواصفات مميزة، يقول في فرسه مادحاً (بِمُشَمِّرٍ عتِدٍ جَهِيزٍ شَدُّهُ... قَيْدِ الأَوَابِدِ والرِّهانِ جَوَادِ) وهي جملة اسمية تدل على ثبوت هذه المواصفات، فيقول أنَّ هذا الفرس طويل القوائم، سريع ولا يفوته الوحش، وهي من عادة الشعراء الجاهليين وصف راحلتهم التي يركبون، فلطالما تقاطعت صورة الذات مع صورة الحيوان الموصوف، فمميزات الفرس من مميزات راكبه. وينتقل بعدها في اختتام القصيدة واصفاً ناقته العاقر التي لا ابن لها فهي قوية وبكامل شبابها، (عَيْرَانةٍ سَدَّ الرَّبِيعُ خَصاصَهَا) شبهها بالعير –أي الإبل– في صلابتها، وساقها في جملة اسمية تؤكد ثبوت الصفة، فهذه الناقة القوية مُنعَّمة لأنَّ الربيعَ أسمنها.

يختتم القصيدة بحكمة، وهي جوهر القصيدة بأكملها، فالمعاني كلّها والقصص التي يسردها أراد بها أن تؤكد هذا المعنى، يقول في جملته الاسمية (والدَّهرُ يُعْقِبُ صَالِحاً بِفَسَادِ) هذه الحقيقة التي تصيُّر كلَّ الأشياء إلى فناء وزوال، فخبر الجملة الاسمية جملة فعلية تساهم في تأكيد التغيُّر والانقلاب الذي يقع، فالجسد يشيخ، والمال يذهب، والعين تفقد نورها، والأجل يقترب. واستخلاصاً لأهم فكرة في هذا المقطع الأخير أنَّ الجمل الاسمية جاءت في الصفات وذكر الأماكن وهي تتصدر قلق الشاعر الأكبر كما كان (الدهر) في خاتمة القصيدة، بينما الجمل الفعلية تجيء في سياقات الافتخار والاستعراض لذلك الشباب المليء بالحيوية والحركة، أو في الطبيعة وهي تزدهر وتورق.

وما يُلحظ على القصيدة بشكلٍ عام هيمنة الجمل الفعلية وخاصةً الماضوية، ولعل هذه هي الخصيصة التركيبية الأكثر وضوحاً في القصيدة، فرثاء الذات يطوي معاني الحسرة التي تتولد من خلال استذكار الأيام الجميلة، أيام القوة والقيادة والصحة والشباب، أيام رأى فيها النور واللون والهناء، بينما هو الآن في الظلمةِ الدامسة، مستسلماً للوهن والركود، غارقاً في قلقه وكآبته وحسرتهِ.

ثانياً: تراكيب الإنشاء:

إذا ما جئنا إلى تعريف الإنشاء فهو "كلٌ كلام لا يحتمل الصدق والكذب، وهو على قسمين: الإنشاء الطلبي وهو ما يستدعي مطلوباً كالأمر والنهي والاستفهام. والإنشاء غير الطلبي وهو ما لا يستعدي مطلوباً كصيغ العقود وألفاظ القسم والرجاء ونحوها"(السامرائي، ٢٠٠٧، ص: ١٧٠). ونظراً للتراكيب الإنشائية في القصيدة، سنلحظ أنَّها شحيحة جداً، وقد يرجع السبب إلى غياب الأساليب الإنشائية مقارنة بهمينة الأساليب الإخبارية إلى أن القصيدة قائمة على الأسلوب الحكائي السردي لا الخطابي.

وإذا ما نظرنا إلى التركيب الإنشائي الطلبي المتجلي في القصيدة، فسنجد أنَّ أسلوب الاستفهام هو الحاضر، وقد جاء بغير غرض الاستفهام كما سنرى، فقد "يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي وهو طلب الفهم أو الاستخبار عن أمر من الأمور إلى معانٍ أخرى كثيرة تُدرك بالقرائن والسياق"(بطاهر، ٢٠١٤، ص:٧٧)، وبهذا سنحاول استقراء دلالة هذا الاستفهام وأبعاده النفسية، وخاصةً أنَّ الاستفهام جاء مرتين في مقطع واحد، وهو مقطع فناء الأقوام (أبيات ٨-١٨)، هذا المقطع الذي يسرد فيه نهايات الأقوام والملوك وفناء نعيمهم، يقول في الشاهد الأول (الضبّي، ص:٢١٧):

8-مـــاذَا أُؤَمِّـــلُ بَعْـــدَ آلِ مُحـــرّقٍ تَركُـــوا منَـــازِلَهُمْ وبعـــدَ إِيَـــادِ

وقع هنا استفهام غرضه النفي، وكأنَّه أراد القول: ليس هناك ما أأمل بعد مصير هذه القبائل (آل محرقٍ وإيادِ)، و(ماذا) أداة استفهام تطوي معنى "القوة والمبالغة في الاستفهام"(السامرائي ،٢٠٠٧، ص: ٢٦٤)، فهذا سؤال مشحون بطاقة الألم والحسرة، فأيَّ أمل في هناء العيش أمام هذه العِبر التي تتوالى، عِبَر أقوامٍ رحلوا وهجروا النعيم الذي كانوا فيه، هجرتهم حيواتهم وانتهى مصيرهم إلى فناء، (ماذا أؤمل) تحمل معنى الخيبة والتشاؤم فليس هناك ما يؤُمل لأجله. وأما في الشاهد الثاني، يقول (الضبّي، ص:٢١٧):

14-أَيـــنَ الـــذينَ بَنـــوْا فطـــالَ بنَاؤُهـــم وتَمتَّعُـــوا بـالأَهـــلِ والأَولادِ

الاستفهام الواقع هنا غرضه الاستنكار، وكأنه يقول أيبقى أحد بنعيمه؟، واستعمل أداة الاستفهام (أين) وهي تستعمل "للسؤال عن المكان سواءً كان استفهاماً حقيقياً أم مجازياً"(السامرائي، ٤/ ٢٥٦)، فهو يسأل عن غائبين فنوا وفنى نعيمهم، وهذا جاء في سياق يحاول فيه الشاعر تأكيد فكرته نحو الفناء، فهو بعد أن اعترف بخيبة أمله (ماذا أؤمِّل) يوجه التساؤل للراحلين (أين الذين بنوا) لتكتمل دائرة القلق والحيرة التي يصارعها الشاعر.

ثالثاً: تقديم ما حقه التأخير :

تعد ظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة تستدعي الالتفات والعناية، فكلُّ كلمة توضع في غير موضعها هي إشارة تنبه على معنى ما، وجاء في تعريف التقديم والتأخير أنَّه: " مخالفة عناصر التركيب ترتيبها الأصلي في السياق، فيتقدم ما الأصل فيه أن يتأخر ويتأخر ما الأصل فيه أن يتقدم والحاكم للترتيب الأصلي بين عنصرين يختلف إذا كان الترتيب لازماً أو غير لازم (...) وهناك أسبابٌ عامة قد تفسر ذلك الترتيب" (الصنعاني، ١٩٩١، ص: ١١٢)، هذه الأسباب تتنوع وفق سياقاتها المختلفة، فيرى ابن جني أنَّ "رتبة الأقوى أبداً أسبق وأعلى"(ابن جني، د.ت، ص: ٥٥)، فالأسبق له الاهتمام والأولوية في المعنى، بينما يوافقه سيبويه في أهمية اللفظ المتقدم في قوله: " كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم."(سيبويه، ١٩٨٨، ١/٣٤)، فتقع عملية

التقديم حين يتم "إخراج أحد عناصر الجملة من المكان المخصص له، وتثبيته في غير مكانه، إذ من أراد أن يخص شيئاً باهتمام السامع أو القارئ قدمه، وفاجأه به ليقع ذلك في نفس سامعه أو قارئه موقعاً ثابتاً"(طحان، ١٩٨٢، ص: ٨٦)، وهذا ما سنحاول استقراءه في نصنا الشعري، الذي ظهرت فيه ظواهر التقديم والتأخير، محاولين الكشف عن دلالتها.

١- تقديم الجار والمجرور على الفاعل:

في مقطع فناء الأقوام، يقول: (يَسِيلُ عليهمُ ... ماءُ الفُرَاتِ(13 ، أصل التركيب: يسيلُ ماء الفرات عليهم، أي قدَّم الجار والمجرور (عليهم) على الفاعل (ماءُ الفرات)، ودلالة هذا التقديم هو التخصيص والاهتمام، فهو أراد أن يخص هؤلاء الأقوام بنعيم الماء الذي كان يسيل عليهم، هذا الماء الوفير والنعيم الباذخ، ولا يخفى على هذا التقديم سمة المبالغة في الوصف لتأكيد رغدة العيش.

وفي مثال آخر على تقديم الجار والمجرور على الفاعل، يقول الشاعر في مقطع حديثه عن نعيم شبابه واستذكار اللهو بالخمر: (يَسْعَى بها ذُو تُومَتَيْنِ مُشَمِّرٌ...قَنَأَتْ أَنَامِلُهُ منَ الفِرْصَادِ ٢٤) وأصل التركيب: يسعى ذو تومتين بها (الخمرة)، فقد قدَّم شبه الجملة (بها) وأخَّر الفاعل (ذو تومتين) ويقصد بها الساقي الذي يرتدي أقراط اللؤلؤ، لذا فدلالة هذا التقديم هو الاهتمام والعناية، فهو يستذكر الخمرة التي شربها في شبابه ويتشوّق إلى تلك الأيام التي لا هم فيها ولا أسى.

٢- تقديم الجار والمجرور على الفعل:

يقول الشاعر في حديثه عن الأقوام الفانية: (ما بَعْدَ زَيْدٍ في فَتَاةٍ فُرِّقُوا... قتْلاً ونَفْياً بعدَ حُسْنِ تآدِي (17 أصل التركيب: فُرِّقُوا في فَتَاةٍ، فقدَّم شبه الجملة الجار والمجرور (في فتاة) وأخَّر الفعل (فُرِّقُوا)، وذلك لدلالة التخصيص، لأنَّه بالعودة إلى قصة قبيلة بني زيد كما جاء في شرح المفضليَّات (ينظر الهامش: الضبّي، ص:٢١٧) أنَّ المنذر بن ماء السماء خطب امرأة تُدعى أم كهف من بني زيد بن مالك، فأبوا أن يزوجوه إياها، فغزاهم وأجلاهم من بلادهم وقتلهم، فهذا التخصيص يعود إلى المسبب الرئيس لهلاكهم -أي هذه الفتاة-.

٣- تقديم الجار والمجرور على الجملة (الشرطية):

يقول الشاعر مخاطباً زوجته: (في آلِ غَرْفٍ لو بَغَيْتِ لِيَ الأَسَى ...لَوَجَدْتِ فِيهم أُسْوَةَ العُدَّادِ ١٦) وأصل التركيب: لو بغيتِ لي الأسى لوجدتِ في آل غرف أسوة العداد. فقدَّم شبه الجملة الجار والمجرور (في آل غرفٍ) على الجملة الشرطية (لو بغيتِ لي الأسى)، ودلالة هذا التقديم هو التخصيص، فهو يخص قوم آل غرف كونهم مثلاً للفناء والزوال (أُسْوَةَ العُدَّادِ)، وهذه العناية بالتقديم تعطي آل غرف الأهمية والعناية وتلفت انتباه المتلقي.

٤- تقديم اسم و خبر الفعل الناسخ عليه:

يقول الشاعر: (فإذَا النَّعيمُ وكلُّ ما يُلْهَى به... يوماً يَصيرُ إلى بِلىً ونَفَادِ ١٥) وأصل التركيب: يصير النعيمُ يوماً. فهو قدَّم اسم وخبر الفعل الناسخ يصير (النعيمُ يوماً) على الفعل الناسخ (يصير)، ودلالة هذا التقديم هو التخصيص، فهو يخص النعيم الذي آل إلى البلى والنفاذ، هذا النعيم الذي يشكل قلق الشاعر وأساه الأهم. يتقدم في الكثير من الأحيان لزيادة التأكيد والعناية والأهمية.

فخلاصة ما جاء في التقديم والتأخير في القصيدة، أنَّ الغرض غالباً ما يتمحور حول التخصيص في سياقاته المختلفة، وأيضاً لزيادة التأكيد على أهمية المُقدَّم وتسليط الضوء عليه، فالنعيم وسيلان الماء على الأقوام والخمرة التي يُسعى بها كانت لهم الصدارة لأهميتهم النفسية عند الشاعر على الرغم أنَّهم كانوا في رتبة من حقها التأخير، بينما الفتاة وآل غرف كان لهما التقديم لضرورتهما في البنية الحكائية.

رابعاً: خصائص تركيبية أخرى:

أ- الضمائر

يعد الضمير من الروابط المهمة التي تربط أجزاء النص وتحقق دلالاته، والضمير هو " ما دلَّ على متكلم أو مخاطب أو غائب"(الأزهري، د.ت، ص: ٢٢)، ولكل قصيدة صوتها الخاص وضمائرها التي تعكسها طبيعة الموضوعات، وذلك لأنَّ الضمائر " تشكل بعلاقاتها نموذج العالم الشعري للمبدع، ذلك أن مدلول كل ضمير يتوقف على مفهوم البناء الكلي للعمل الشعري في جملته"(فلفل، ٢٠١٣، ص: ١٤١)، لذا سنحاول تتبع تجليات الضمير في قصيدتنا المدروسة، والتي يلاحظ فيها هيمنة ضمير المتكلم وخاصةً (ياء المتكلم) التي تدل على معاني ذاتية عميقة منبثقة من أسف الشاعر على نفسه ورثائه لها وحنينه لذات الماضي.

١- ضمير المتكلم:

نستطيع أن نلحظ هيمنة ياء المتكلم على مطلع القصيدة (الضبّي، ص:٢١٦):

١- نامَ الخلِيُّ وما أُحسّ رُقادِي والهَمُّ مُحتَضِرٌ لَدَيَّ وِسَادِي

٢- مِنْ غَيْرِ ما سَقَمٍ ولكنْ شَفَّنِي هَمٌّ أَرَاهُ قد أَصابَ فُؤَادِي

إنَّ بروز ضمير المتكلم منذ بداية القصيدة يطوي دلالة مهمة، وهي أنَّ ذاتية الشاعر هي الطاغية، وذات الشاعر هي محور القصيدة وجوهرها، إنَّه أرق الشاعر المُتعِب (رقادي) وهمه المثقَل (فؤادي)، وطغيان ياء المتكلم بهذا التوالي يطوي معنى الشكوى والتوجُّع، يقول في أمثلة أخرى: (لديَّ) (شفَّني) (فؤادي) (عليَّ) (سَوادي) (نفسي) (طارفي) (تلادي) (غاضني) (بصري) (أجلادي) (عاذِلَتي) (قِيادي) (بمالي) (أجيادي)، ولعل ما يسترعي

الانتباه هو ارتباط الأشياء المادية والمعنوية بذات الشاعر، وأغلبها جاءت في سياقات التوجع من الحاضر أو استذكار الماضي، وقد "يشير استعمال ضمير المتكلم إلى جانب يرتبط بمحاولة هذه الذات الاستقواء بنفسها في مقابل الآخر، تجلياته العديدة، حيث يأتي هذا النوع من الضمير لجلب الصفات القياسية لمصلحة المتكلم أو للذات الشاعرة من جانب"(دريم، ٢٠١٨، ص:٣١)، فالشاعر يخاطب زوجته في هذه القصيدة وهو يخبرها بماضيه المليء بالنعيم والبطولة، وهي أقرب أن تكون عروضاً افتخارية لذات الماضي أمام ذات الحاضر الأكثر ضعفاً ووهناً، فإنَّ ضمير المتكلم يعد "معادلاً لتعرية النفس، ولكشف النوايا أمام القارئ، مما يجعله أشدَّ تعلقاً، وإليها أبعد شوُّقاً"(ضرغام، ٢٠٠٩، ص: ٩٤)، فقد ظهرت نماذج أخرى لضمير المتكلم، وهو تاء الفاعل: (علمتُ) (بَليتُ) (عَصيتُ) (أطعتُ) (لهوتُ) (غدوتُ) (تلوتُ)، وأغلبها جاء في سياقات الحديث عن ذات الماضي التي يشهد لها الزمن بطولاتها.

٢- ضمير الغائب:

يعد ضمير الغائب أيضاً من الضمائر المسيطرة على القصيدة، وخاصةً في مقطع فناء الأقوام (٨-١٨)، وهو يجيء في صورة الجماعة، كقوله في هاء الغائب: (منازلهم) (أبيهم) (ديارهم) (عليهم) (بناؤهم) (فيهم) (لعزِّهم) (رافِدُهم)، أو كواو الجماعة: (تركوا) (كانوا) (غَنوا) (نزلوا) (بَنَوا) (تمتعوا) (فُرقوا) (فتخيَّروا)، ونسطيع ملاحظة ارتباط الضمير بصورتين متناقضتين، صورة الغنى والنعيم كعزّهم وديارهم، وصورة الهلاك والفناء كتركوا، وفُرقُّوا. ويلحظ ظهور نون النسوة في سياق حديثه عن ذكرياته مع النساء: (يَمشينَ) (يَرمينَ) (يَنطقنَ) (بلغنَ) (حاولنَ).

٣- ضمير المخاطب:

جاء ضمير المخاطب بشكل محدود، وهو الضمير الذي يخاطب الزوجة (تاء المخاطبة) كقوله: (نبأتِني) (بغيتِ) (لَوَجدتِ)، وعلى الرغم من قلة ورودها إلا أنَّه قد كان لها دوراً مهماً في جعل النص أكثر حيويةً.

ب - معاني حروف الجر

تمتاز حروف الجر بتعدد معانيها، وتتشكل المعاني بناءً على سياقاتها المختلفة، لذا وتتبعاً لحروف الجر في القصيدة نلحظ أن حرف الباء هو الأكثر تردداً، يليه حرف اللام، ثم في، ثم على، وسنحاول أن نشير إلى هذه الأحرف ومعانيها وفقاً لدلالتها في السياق، مبينين كيف أثَّرت معاني الحروف على القصيدة ودلالاتها:

أولاً: (الباء):

إنَّ معنى الباء الأساس هو الإلصاق، وقيل أنَّ هذا المعنى لا يفارقها، لكن لها أيضاً معاني أخرى كالمصاحبة، والاستعانة والتعدية والظرفية وغيرها (يُنظر: السامرائي، ٣/ ١٩ وما بعدها)، لذا سنرى تجليات حرف الباء في القصيدة ومعانيها في سياقاتها المختلفة:

١-الإلصاق:

جاءت الباء بمعنى الإلصاق، في قوله" ضُرِبتْ عليَّ الأرضُ بالأَسْدَادِ "3فقد سُدَّت عليه الأرض حين فقد بصره وخارت قواه، وحال السد الملاصق بينه وبين رغد العيش ونعيم الدنيا، يقول في موضعٍ آخر عن كعب بن مامة وابن داؤد "ولَقد غَنُوا فيها بأَنْعَمِ عِيشَةٍ " 12فجاء الباء بمعنى الإلصاق لأنَّ النعيم كان ملاصقاً لتلك الحياة السعيدة، في حين يختتم القصيدة بقوله "والدَّهرُ يُعْقِبُ صَالِحاً بفَسَادِ" 36 هذا التعاقب الذي يُقلب فيه الصالح إلى فساد، فالترابط بينهما يؤكد معنى الإلصاق، فالصلاح مبتوعٌ والفساد، والنعيم متبوعٌ بالفناء.

٢- الاستعانة:

يفيد معنى الاستعانة في الدعم والعون، وشار إلى ذلك المبرد (٢٨٥هـ) "وأما الاستعانة فقولك كتبتَ بالقلمِ وعمِل النجَّار بالقادوم"(المبرد، د.ت، ص : ٣٩)، وهي تطوي معنى الآلةِ أيضاً. فقد جاءت الباء بمعنى الاستعانة في قوله "فلقد أَرُوحُ على التِّجارِ مُرَجَّلاً...مَذِلاً بمَالي لَيّناً أَجْيَادِي " 21واستعماله (بمالي) تفيد معنى الاستعانة، فهو يستعين بالمال كي ينفقه، يقول في موضع آخر" ولقد لَهَوْتُ ولِلشَّبابِ لَذَاذَةٌ...بسُلَافَةٍ مُزِجَتْ بماءِ غَوادِي " 22وكأنه أراد القول لهوتُ بسُلافة، أي استعانة بالسلافةِ وهي خالص الشراب من الخمر للهو والاستمتاع، بينما يستعمل معنى الاستعانة أيضاً في حديثه عن فرسه "بمُشَمِّرٍ عتِدٍ جَهِيزٍ شَدُّهُ " 32هذه المغامرات التي يقطعها استعانةً بهذا الفرس، فرسه المميز الذي يعدو سريعاً: "يَشْوِي لنَا الوَحَدَ المُدِلَّ بحُضرِهِ ٣٣" أي بعدوه، فهذا الفرس يستعين بسرعته في العدو للقضاء على الفريسة (كالحمير) فهو من سرعة عدوه كأنه يصطاده ويشويه، وهو أيضاً يستعين بناقته لاتباع المرتحلين "ولَقَدْ تَلَوْتُ الظَّاعِنينَ بجَسْرَةٍ 34"فالباء هنا تفيد معنى الاستعانة.

٣- المصاحبة:

إنَّ باء المصاحبة هي التي "يحسن موضعها "مع" نحو حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (...أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) (الإمام مسلم، رقم الحديث: ١٧١٥) أي ولا تشركوا معه شيئاً"(بن الشيخ، ٢٠١٧، ص: ٤٢)، فجاءت الباء بمعنى المصاحبة في قوله "بِسُلَافَةٍ مُزِجَتْ بماءِ غَوادِي " 22الخمرة هنا ممزوجة مع ماء المطر فالباء كان لها معنى

المصاحبة والامتزاج، ويقول في النسوة اللائي يمشين وبصحبتهن أقداح الخمر "ونَوَاعِمٌ يَمْشِينَ بِالأَرْفَادِ 25"فالباء أفادت معنى المصاحبة.

4- الظرفية:

أما الظرفية فهي أن "يُحسُنَ وقوع كلمة "في" موقعها"(المرجع نفسه، ص:٤١)، وهي أيضاً فيها معنى الإلصاق (السامرائي، ٣ /٢١). جاءت الباء بمعنى الظرفية في سياق حديثه عن أماكن بعينها، زارها هو أو مكثت فيها أقوام سابقة، وذلك في قوله "بِالْجَوّ فالأَمَرَاتِ حَــوْلَ مُغَامِرٍ " 31وهي ظرفية تفيد للدلالة على المكان، وكذلك قوله "نَزَلُوا بِأَنْقُرَةٍ يَسِيلُ عليهِمُ ... ماءُ الفرات ١٣ " هذه الباء ظرفية تفيد الإلصاق فهم ملاصقون لهذا المكان وماكثون فيه.

ثانياً: (اللام):

إنَّ معنى اللام هو الاختصاص، ويدخل ضمن هذا المعنى معانٍ أخرى كالمِلكية، وشبه الملكية، والتمليك وشبه التمليك، والتبليغ والتعليل، ومعاني الموافقة لـ(إلى) و(في) وغيرها(يُنظر: السامرائي، ٦٤\٣ وما بعدها)، فنرصد أهم المعاني التي تجلَّت في حرف اللام في القصيدة:

١- التمليك:

فالتمليك أن "يصبح للشيء مالك آخر برضا المالك الأول"(بن الشيخ، ص: ٦٣)، وجاء معنى التمليك في قوله "أَرضاً تَخَيَّرَها لِدَارِ أَبيهِمُ ... كَعْبُ بنُ مَامَةَ وابنُ أُمِّ دُؤَاد " 10اللام هنا أفادت معنى التمليك، فالأرض مُلِّكَت لهم وبنوا فيها دارهم، وهي تفيد أيضاً معنى الاختصاص.

٢- التعليل:

جاءت اللام بمعنى التعليل في قوله "فَتَخَيَّرُوا الأَرضَ الفَضَاءَ لِعِزِّهِمْ 18"أي تخيَّروا هذه الأرض لنشر نفوذهم وتوطيد هيبتهم في المنطقة، فاللام في (لعزهم) فيها معنى التعليل والتبرير للغاية، يقول في مثال آخر "وَافَى بها لِدَرَاهِمِ الأَسْجَادِ " 23أي أتى الساقي بالخمر ليبيعها بدراهم الأكاسرة، فاللام لها معنى التعليل، لأنَّ الساقي جاء بالخمر لبلوغ غايته المادية.

٣- بمعنى إلى:

جاءت اللام بمعنى (إلى) في سياقات يتحدث فيها عن الوصول إلى أماكن بعينها، يقول "لا أَهْتَدِي فيها لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ " 4والتلعة ما ارتفع من الأرض وما انخفض، واللام هنا تفيد الاختصاص أيضاً، ويقول في موضع آخر "ولقدْ غَدَوْتُ لِعَازِبٍ مُتَنَاذَرٍ "29أي غدوتُ إلى أرض بعيدة يهابها الناس.

٤- بمعنى في:

جاءت اللام بمعنى (في) في قوله "ولقدْ لَهَوْتُ وللشَّبابِ لـذَاذَةٌ "22أي في مرحلة الشباب تخصيصاً وُجِدت تلك اللَّذاذة والمُتع.

ثالثاً: (في):

إنَّ في تفيد الظرفية، المكانية أو الزمانية، سواءً كان هذا الظرف حقيقياً أم مجازياً، وهي لها معاني أخرى كالتعليل، ومعنى مع أو إلى أو مع(يُنظر: السامرائي، ٣/ ٥٧ وما بعدها)، فسنحاول رصد تجليات حرف (في) ومعانيها في القصيدة وفقاً للتقسيم الآتي:

١- ظرفية – مكانية:

جاءت (في) بمعناها الظرفي المجازي في قول الشاعر "لا أَهْتَدِي فيها لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ "4 والضمير يعود إلى الأرض التي سُدَّت عليه بالأسداد، ففي تدل على ظرف مكان، وكذلك في قوله:"ولقد غَنُوا فيها بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ ١٢" أي هي أرض كعب بن مامة وابن أم داؤد، فهي دالة على المكان.

٢- ظرفية – مجازية:

جاءت (في) بمعناها الظرفي المجازي في قوله " ولقد غَنُوا فيها بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ... في ظِلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأَوتادِ "12أي أنَّ نعيمهم كان في زمن ذلك المُلك والسلطة والقوة الذي تمتعوا بها، ف(في) الواقعة بجملة (في ظلِّ ملكٍ) لها معناها الظرفي والمجازي الدال على فترة المُلك.

٣-التعليل:

جاءت (في) بمعنى التعليل في قول الشاعر " في آلِ غَرْفٍ لو بَغَيْتِ لِيَ الأَسَى ١٦" فبقوله "في آل غرف" إشارة تعليلية إلى أنَّ فيهم تضرب الأمثال، وكذلك في قوله" بَعْدَ زَيْدٍ في فَتَاةٍ فُرِّقُوا... قتْلاً ونَفْياً ١٧" ففي تشير إلى الفتاة وهي تعليل لتفرُّق قوم زيد ونفيهم وقتلهم.

رابعاً: (على):

يقول سيبويه " أما (على) فاستعلاء الشيء؛ تقول: هذا على ظهر الجبل، وهي على رأسه (..) وأما مررت على فلانٍ فجرى هذا كالمثل. وعلينا أميرٌ كذلك. وعليه مالٌ أيضاً؛ وهذا لأنه شيءٌ اعتلاه"(سيبويه، ٤/٢٣٠)، وهي تأتي بمعاني أخرى كالمصاحبة، والمجاوزة، والتعليل والظرفية والاستدراك (يُنظر: السامرائي، ٣/ ٤٧ وما بعدها)، فسنحاول رصد تجليات حرف (على) ومعانيها في القصيدة:

١- الاستعلاء:

جاءت (على) بمعنى الاستعلاء في قول الشاعر "جَرَتِ الرِّياحُ على مكانِ دِيارِهِمُ "11 هذه الرياح المُدمِّرة جرت فوق تلك الديار وهي تحمل معنى العلو والاستعلاء، وأيضاً في قوله "ويَزِيدُ رَافِدُهُمْ علـى الرُّفَّادِ 18"أي أنَّ آل زيد في زمن نعيمهم كانت عطاياهم في ازدياد أي أنَّ العطايا الجديدة تعلو العطايا السابقة بهذا الازدهار والنمو.

٢- الظرفية:

جاءت (على) بمعنى الظرفية في قوله "فكأَنَّما كانوا عَلَى مِيعَادِ" 11 هذه الظرفية التي تدل على الزمن، بينما الظرفية التي تدل على المكان جاءت في قوله "فلقد أَرُوحُ على التِّجارِ مُرَجَّلاً ... مَذِلاً بمَالي لَيّناً أَجْيَادِي " 21أي ذهابه إلى بيوت الخمَّارين.

والخلاصة التي توصَّلنا إليها في معاني حروف الجر، أنَّ الشاعر قد استعمل الحروف ومعانيها بدقَّة تتناسب مع ما يقتضيه السياق، وهذا يزيد من ترابط القصيدة لفظياً ومعنوياً، فيصبح أصغر جزء من مكونات القصيدة دالاً ومطواعاً لقضية القصيدة ودلالاتها.

الخاتمة:

توصلنا في هذا البحث إلى جُملةٍ من النتائج، ويمكن رصدها في النقاط التالية:

- تمتاز قصيدة (نام الخليُّ) بتراكيب نحوية متنوعة لها دلالاتها الوثيقة بمعاني القصيدة، والتي تتمحور حول رثاء النفس وحاضرها الكئيب، مع استذكار الماضي الرغيد.
- جاء تقسيم القصيدة على ثلاثة مقاطع: المقطع الأول: الشكوى ورثاء الذات (١ – ٧)، المقطع الثاني: فناء الأقوام (٨ – ١٨)، والمقطع الثالث: استذكار الشباب والنعيم (١٩ – ٣٦)، ليحوي كل مقطع خصائصه التركيبية الخاصة التي تخدم دلالة المقطع وموضوعه.
- في تراكيب الإخبار، هيمنت الجمل الفعلية الماضوية على القصيدة، فكانت هي الخصيصة التركيبية الأكثر وضوحاً، لأنَّه انطلاقاً من رثاء الذات تجيء الحسرة في استذكار الأيام الجميلة، أيام القوة والقيادة والصحة والشباب، فالجمل الفعلية لها معاني الحركة والحيوية والديمومة والتغيُّر.
- بينما تجيء الجمل الاسمية في الصفات وذكر الأماكن لتدل على الثبوت والاستقرار، وكثيراً ما يكون خبر الجمل الاسمية جمل فعلية تدل على تغيُّر الحال وزوال النعم. وغالباً ما تتصدر الجمل الاسمية قلق الشاعر الأكبر كما كان (الهم) في مطلع القصيدة، و(الدهر) في خاتمتها.

- أما في تراكيب الإنشاء، فقد جاءت بشكل محدود ومحصور في أسلوب الاستفهام، والذي تكرر حضوره في مقطع فناء الأقوام، وهذا قد خدم معنى القصيدة القائم على التسآل الاستنكاري في المآل الذي آلت إليه الأقوام الفانية.
- جاء التقديم والتأخير في القصيدة بشكل متنوع، وغرضه يتمحور حول التخصيص في سياقاته المختلفة، وأيضاً لزيادة التوكيد. فما تقدَّمت الكلمات في غير رتبتها إلا لزيادة الاهتمام وخدمة المعنى.
- تتبعاً للضمائر في القصيدة، يتجلَّى ضمير المتكلم بشكل كبير وخاصةً في صورة (ياء المتكلم) و(تاء الفاعل) وهو يدل على طغيان ذاتية الشاعر، لأنَّ الذات هي محور القصيدة وجوهرها، بينما ظهر (ضمير الغائب) في حديثه عن الأقوام الفانية، وجاء (ضمير المخاطب) بشكل محدود في سياق مخاطبته لزوجته.
- أما حروف الجر التي برزت في القصيدة هي: (الباء)، (اللام)، (في)، و(على)، وقد جاءت هذه الحروف بمعانيها المختلفة بشكل متوافق مع سياقاتها، وهذا ما زاد ترابط القصيدة لفظياً ومعنوياً.

قائمة المراجع:

١. ابن جني. (د.ت). الخصائص(تحقيق: محمد علي النجار). دار الكتاب العربي.
٢. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(١٩٩٩) مقدمة ابن خلدون. دار إحياء التراث العربي.
٣. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. (د.ت) الصاحبي(تحقيق: السيد أحمد صقر). مطبعة عيسى الحلبي.
٤. ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري (١٩٩٣). لسان العرب (ط٣). دار صادر.
٥. أبو الفتوح، محمد حسين (١٩٩٣). الجانب الدلالي لأدوات الشرط، مجلة الدارة: دارة الملك عبد العزيز، .(2) 19
٦. الأزهري، خالد بن عبد الله ابن أبي بكر(د.ت). شرح الأزهرية. المطبعة الكبرى ببولاق.
٧. التونجي، محمد(٢٠٠٣). معجم علوم العربية. دار الجيل.
٨. أنيس، إبراهيم (١٩٧٦). دلالة الألفاظ (ط٣). مكتبة الأنجلو المصرية.
٩. بطاهر، بن عيسى (٢٠١٤). الأسلوبية والبلاغة – العلاقة والإجراء . جامعة الشارقة.
١٠.بن الشيخ، هيبة (٢٠١٧). حروف الجر بين المعاني والوظائف[رسالة ماجستير غير منشورة]. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان، الجزائر: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.
١١.الجرجاني، عبد القاهر (٢٠٠٢). دلائل الإعجاز في علم المعاني (شرح: ياسين الأيوبي). المكتبة العصرية.
١٢.حسان، تمام (١٩٩٨). اللغة العربية معناها ومبناها (ط٣). عالم الكتب.
١٣.الخوالي، محمد علي (١٩٩٧). أساليب تدريس اللغة العربية. دار الفلاح.

١٤.دريم، نور الدين (٢٠١٨). فاعلية الضمير في إنتاج الدلالة: دراسة أسلوبية في قصيدة أنشودة المطر لبدر شاكر السياب، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، .(20)

١٥.ربابعة، موسى (٢٠١٨). سيمياء العواطف: قراءة في قصيدة (نام الخلي) للأسود بن يعفر . مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب .(1) 15 .

١٦. السامرائي، محمد فاضل:

أ- (٢٠٠٠). الجملة العربية والمعنى. دار ابن حزم.

ب- (٢٠٠٧). الجملة العربية: تأليفها وأقسامها) ط٢). دار الفكر.

ج- (٢٠٠٠). معاني النحو، (٤ أجزاء) . دار الفكر.

١٧.سيبويه، عمرو بن عثمان .(1988) .الكتاب(تحقيق: عبد السلام هارون) (ط٣). مكتبة الخانجي.

١٨.الصنعاني، محمد بن إسماعيل(١٩٩١). كتاب التهذيب الوسيط في النحو . دار الجيل.

١٩.الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر (٢٠١٢). المفضَّليَّات (تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون) (ط٦).دار المعارف.

٢٠.ضرغام، عادل (٢٠٠٩). في تحليل النص الشعري . منشورات الاختلاف.

٢١.طحان، ريمون (١٩٨٢). الألسنة العربية) ط٢). دار الكتاب اللبناني.

٢٢.عبد السلام، حسين أحمد عبد الحميد (١٩٩١). الموت في الشعر الجاهلي . مطبعة الحسين الإسلامية.

٢٣.فلفل، محمد عبدو(٢٠١٣). شعرية التشكيل النحوي في قصيدة واحر قلباه للمتنبي، مجلة التراث العربي، اتحاد كتاب العرب،.(129) 31

٢٤.قباوة، فخر الدين (١٩٨٩). إعراب الجمل وأشباه الجمل. (ط٥). دار القلم العربي.

٢٥.المبرد، محمد بن يزيد الأزدي (د.ت). المقتضب (تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة) . عالم الكتب.

٢٦.مجمع اللغة العربية (١٩٩٦). المعجم الوجيز. قيلوب.

٢٧.مسلم، الإمام مسلم (٢٠٠٦). صحيح مسلم (تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي). دار طيبة.